ما الذي يمكن أن تسفر عنه وتقود إليه ملاحظةُ الظواهر اللغوية، والدلالات العميقة للألفاظ، وعلاقاتها، ملاحظةً موجهةً نحو إزالة الغموَض أو اَللبس الناتج عن تعدد الدلالة؟

وما هو المعيار الذى يأمن اللغويُّ عند الاحتكام إليه، خطرَ أن يضل الطريق إلى «قصد المتكلم»؟

هذه هي الأسئلة التي تتبعتها خطوات هذه الدراسة أو التي كانت هذه الدراسة محاولة للإجابة عنها، أو محاولة للعثور على أسئلة أخرى تحدها وتتفرع منها فتبين معالم الإشكال على نحو أكثر وضوحا مما كان عليه عند بداية التصدي لأول الأسئلة. .

وقد اتخذت هذه التجربة علم الوجوه والنظائر حقلاً لها.

نشأ هذا العلم في عصر البدايات الأولى لتدوين العلوم الإسلامية، التي انبثق معظمها من البحث فى الدلالة وما تفرع عليها من مشكلات.

ويرجع تاريخ أوائل المدونات فيه إلى القرنين الأول والثانى، ثم ازدهرت هذه المدونات فى القرنين الرابع والخامس، وتضخمت مادتها، واستقرت مناهج التأليف فيها استقرارا واضحا، ثم وصلتنا من القرون المتأخرة أبوابا في الكتب الموسوعية الجامعة علوم القرآن.

وعرفتنا هذه الكتب على علم الوجوه والنظائر؛ علما يتتبع ظهور اللفظ الواحد بمعان مختلفة فى القرآن الكريم، ويتخذ من سياقات هذا النوع من الألفاظ، أمثلة لهذه المعانى المختلفة المسماة بوجوه اللفظ وتعد اللفظة في أحد سياقاتها نظيرة لها في السياقات الأخرى التي ترد فيها.

كيف كان يتم توجيه المعنى، وتحديد الدلالة في كل موضع أو سياق بأنها هذا المعنى دون غيره من الوجوه المحتملة؟ الجواب عن هذا السؤال لم تقدمه لنا كتب الوجوه والنظائر، تلك التي اكتفت بجمع الألفاظ وذكر وجوه المعاني وسياقاتها.

لكن كتب التفسير امتلأت بالخلافات حول توجيه كثير من هذه الألفاظ متعددة المعنى.

وفي أحيان كثيرة كانت «إشارات السياق ودلائله» تؤدي دورا غير قليل في توجيه عقل المفسر، يعبر عنه تصريحا، أو لا يشير إليه لكن أثره في النهاية، يكون واضحا.